

تقييم الأثر: قابلية التعميم وقابلية النقل والأخذ بالتدخلات على نطاق واسع

يقدم هذا الموجز إطارًا عمليًا لفهم كيف يمكن نقل وتوسيع نطاق التدخلات التي أثبتت نجاحها في سياقات محددة إلى بيئات جديدة. يوضح الفرق بين قابلية التعميم وقابلية النقل، ويشرح أهمية الحفاظ على آليات التدخل الفعالة مع تكييف الشكل وفقًا للسياق المحلي.

كما يستعرض أدوات مثل "نظرية المستوى المتوسط" وإطار معمل J-PAL لتقييم مدى قابلية تطبيق التدخلات عبر أربعة مراحل رئيسية: تحديد الآلية السببية، تقييم الظروف المحلية، اختبار التكيف، والتوسع مع التقييم المستمر. من خلال أمثلة من مجالي التعليم والصحة، يؤكد الموجز أن التخطيط الجيد والسياق المحلي هما مفتاح النجاح عند نقل أي تدخل إلى نطاق أوسع.

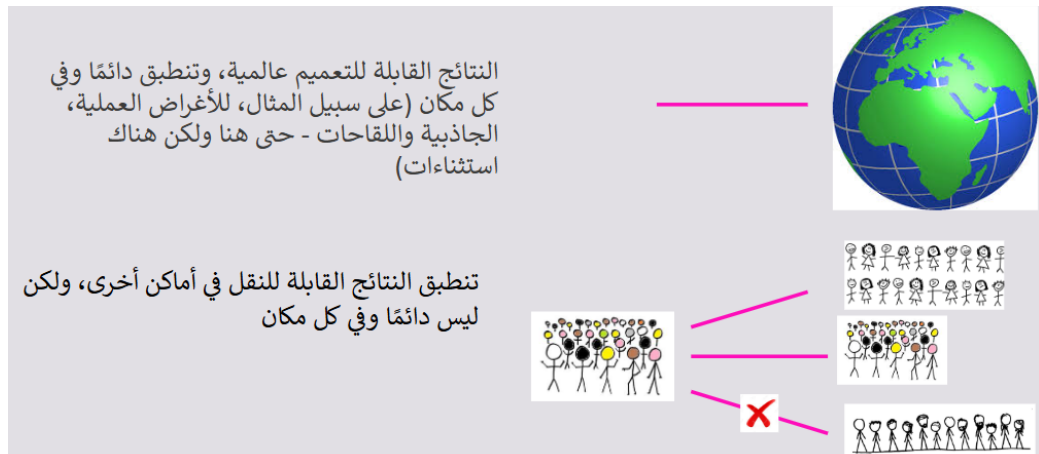
هذا الموجز هو جزء من سلسلة مكونة من خمسة موجزات إرشادية أعدتها مؤسسة الملكة رانيا، استنادًا إلى مواد طورها البروفيسور هوارد وايت (ممثلًا عن مركز البحوث والتقييم - REC) لدورة تدريبية بعنوان "تقييم الأثر: من التصميم إلى التوسع". وقد تم تمويل هذه الدورة من قبل مؤسسة الوقف التعليمي (EEF)، ومؤسسة BHP، ومؤسسة الملكة رانيا.

فهم التعميم وقابلية النقل

قابلية النقل تعني مدى إمكانية تطبيق نتائج التدخل في بيئات مختلفة عن تلك التي أجري فيها التقييم الأصلي. بعض التدخلات، مثل اللقاحات، تُظهر فعالية عالية في مختلف السياقات، ويندرج ذلك تحت مصطلح أوسع هو قابلية التعميم (انظر الشكل 1).

لكن في معظم الحالات، تتأثر فعالية التدخل بالسياق المحلي. وهنا تبرز أهمية قابلية النقل، التي تُركّز على إمكانية تكييف التدخل ليتماشى مع بيئة جديدة، مع الحفاظ على الآليات التي تجعله فعالاً.

الشكل 1: التعميم وقابلية النقل



يتطلب توسيع نطاق أي تدخل فعال المرور بمراحل منهجية ضمن دورة التدخلات المستندة إلى الأدلة، وتشمل ما يلي:

1. تحديد تدخل فعال
اختيار نهج تم تقييمه بدقة وثبتت فعاليته في سياقات أخرى.
2. تقييم قابلية النقل
تحليل العوامل السياقية التي قد تؤثر على نجاح التدخل في بيئة جديدة.
3. التكيف والتنفيذ
تعديل تصميم التدخل ليتناسب مع السياق المحلي، مع الحفاظ على آلياته السببية الأساسية التي تقف وراء نجاحه.
4. التقييم والتوسيع
تنفيذ تقييم دقيق لقياس الأثر، ثم توسيع نطاق التطبيق مع إجراء التعديلات اللازمة لضمان الاستدامة والفعالية.

الصندوق 1: التبني أم التكيف؟ – الالتزام بالتصميم كاملاً أم بآلية عمله؟

عند توسيع نطاق تدخل أو برنامج ما، هناك خياران رئيسيان:

- الالتزام بالتصميم كاملاً (Fidelity of form) يعني تنفيذ التدخل على شكله الأصلي كما هو دون تعديل.
 - الالتزام بالآلية (Fidelity of function) يعني تكيف التدخل مع السياق الجديد، مع الحفاظ على الجوهر الفعال أو منطق السببية الذي يحقق الأثر.
- الغاية هي الحفاظ على ما ينجح عند إعادة تنفيذ التدخل في سياق مختلف، حتى إن تغيرت طريقة تقديمه أو إطاره الخارجي.

لا يمكن التقليل من أهمية السياق عند تقييم مدى نجاح التدخل في بيئات مختلفة. فخصائص السكان، والسياسات المعمول بها، والعوامل الثقافية، كلها تلعب دوراً محورياً في تحديد ما إذا كان التدخل سينجح عند نقله إلى مكان جديد.

دراسة حالة: إزالة الديدان في كينيا

أظهرت هذه المبادرة نتائج إيجابية ملموسة في كينيا، حيث أدت إلى تحسينات ملحوظة في صحة الأطفال وأدائهم الدراسي.

لكن عند تنفيذ برامج مشابهة في بلدان أخرى، لم تتحقق نفس النتائج. ويُعزى هذا التباين إلى اختلاف الظروف، مثل: مدى انتشار العدوى في المجتمع و جودة البنية التحتية الصحية و الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية.

تُبرز هذه الحالة أهمية دراسة السياق بعناية قبل نقل أي تدخل إلى بيئة جديدة.

استخدام نظرية المستوى المتوسط لتقييم قابلية النقل وقابلية التوسع

النظرية متوسطة المستوى (Mid-Level Theory – MLT)

تساعد على الربط بين النظريات العامة جدًا والتدخلات العملية على الأرض. بخلاف النظريات الواسعة التي تكون في الغالب مجردة ولا توضح كيفية التطبيق، تقدّم النظرية متوسطة المستوى طريقة منظمة لفهم ما إذا كانت فكرة التدخل ستنتج في أماكن مختلفة، من خلال التركيز على الأسباب التي تجعلها تنجح والظروف التي تحتاجها.

الشكل أدناه يوضح هذه الفكرة: كلما كانت النظرية أكثر تجريداً، زادت قدرتها على التعميم، لكنها قد تصبح غير واضحة أو صعبة الاستخدام. أما جعل النظرية "أكثر تعمقاً"، أي أكثر تفصيلاً يعني إضافة معلومات عن التدخل وظروفه، مما يجعلها أكثر فائدة عند اتخاذ قرارات عملية.

الشكل 2: ما مدى "توسط" النظرية متوسطة المستوى؟



كيف تُقيم النظرية متوسطة المستوى (MLT) قابلية التوسع؟

عند دراسة إمكانية توسيع نطاق تدخل ما إلى سياقات جديدة، من الضروري أن يأخذ المقيمون في الحسبان عدّة عوامل رئيسية، منها:

- الآليات السببية: ما الذي يفسر نجاح التدخل؟ ما هي "المحرّكات" التي تؤدي إلى النتائج المرجوة؟
- عوامل الدعم والمعوقات: ما العوامل التي تساعد على نجاح التدخل، وما العقبات التي قد تُعيق تنفيذه؟
- إجراءات الحماية: ما هي الجوانب التصميمية التي يمكن أن تُخفف من آثار المعوقات وتُعزز عوامل النجاح؟
- التعديلات الضرورية: ما الأجزاء التي تحتاج إلى تعديل لتناسب السياق المحلي الجديد، دون التأثير على فعالية التدخل؟

مثال:

سياسة تهدف إلى زيادة مشاركة أولياء الأمور في المدارس قد تنجح في بلد يتمتع بثقافة راسخة من الانخراط المجتمعي في التعليم. لكن في سياق آخر، حيث يكون مستوى تعليم الأهل منخفضًا وتفاعلهم مع المدارس محدودًا، قد تتطلب هذه السياسة **تعديلات جوهريّة**—مثل حملات توعية، أو أدوات تواصل مبسّطة—حتى تكون فعّالة بنفس القدر.

اعتبارات أساسية لقابلية النقل والتكيف

عند نقل تدخل من سياق إلى آخر، لا يكفي الاعتماد على نجاحه السابق. بل يجب تحليل عدة عوامل لضمان فعاليته في البيئة الجديدة، ومنها:

- **الالتزام بآلية العمل على حساب الالتزام بالإطار الخارجي (انظر الصندوق 1)**
يجب الحفاظ على **الهدف الأساسي** والآلية السببية للتدخل، حتى لو تطلّب ذلك تعديل الشكل الخارجي أو طريقة التنفيذ.
- **الحواجز الثقافية والمؤسسية**
فهم السياق المحلي أمر ضروري، بما في ذلك الهياكل الحكومية والأعراف الاجتماعية التي قد تؤثر على القبول والتنفيذ.
- **البنية التحتية وتوفر الموارد**
بعض التدخلات، خاصة التي تعتمد على التكنولوجيا، قد تكون غير قابلة للتنفيذ في البيئات منخفضة الموارد—مثل توفير حواسيب في مناطق لا تتوفر فيها الكهرباء، أو تطبيقات هاتفية في مناطق تفتقر لتغطية الشبكة.

مثال: برنامج شراكة الممرضات مع العائلات (Nurse Family Partnership Program)

طُوّر هذا البرنامج في الولايات المتحدة لتقديم زيارات منزلية إلى الأمهات الشابات، وأظهر نتائج إيجابية على نمو الأطفال. لكن عند تجربته في المملكة المتحدة، لم يظهر أي أثر يُذكر، لأن النظام الصحي هناك كان يقدّم خدمات مماثلة بالأساس. يُسلّط هذا المثال الضوء على ضرورة **تقييم السياق المحلي والبرامج القائمة** قبل نقل أو توسيع أي تدخل.

دراسة حالة – التخطيط للتوسّع: رفع سن الإلزام في التعليم في المملكة المتحدة

يُعتبر **رفع سن الإلزام في التعليم أو التدريب إلى 18 عامًا** من أبرز التحولات التي شهدتها السياسات التعليمية في المملكة البريطانية المتحدة خلال السنوات الأخيرة. وهدفت هذه الخطوة إلى تعزيز فرص التوظيف، والحد من بطالة الشباب، ورفع مستويات التحصيل العلمي. غير أن تطبيق هذه السياسة على نطاق واسع لم يكن أمرًا بسيطًا؛ بل تطلّب **تخطيطًا دقيقًا وتنفيذًا تدريجيًا** لضمان فعاليتها واستدامتها.

العوامل الرئيسية في توسيع نطاق السياسة

ساهمت عدة عوامل في إنجاح تطبيق سياسة رفع سن الإلزام في التعليم والتدريب، منها:

1. الإرادة السياسية والدعم المجتمعي
تأمين القبول والدعم من أصحاب المصلحة، بما في ذلك أولياء الأمور والطلاب والمعلمين.
2. التدريب والتخطيط التدريجي
نُفذت السياسة على مراحل في أنحاء مختلفة من البلاد، مما أتاح فرصة للتعلّم وتحسين التخطيط قبل التعميم.
3. جاهزية البنية التحتية
توسيع نطاق برامج التدريب المهني والتلمذة الصناعية لتلبية احتياجات الطلاب المختلفة.
4. أنظمة الدعم للشباب غير المنخرطين في التعليم أو العمل أو التدريب
إنشاء آليات لرصد الشباب غير المنخرطين في التعليم أو العمل أو التدريب، وتوفير خدمات تساعدهم على الاندماج في المسار المهني أو التعليمي.
5. معالجة قضايا الإنصاف
اتخاذ تدابير لضمان عدم تعرض الفئات المهمشة لعوائق إضافية تُعيق التزامهم لهذه السياسة الجديدة.

دروس مستفادة من تجربة المملكة المتحدة

- السياسات التي تستهدف تغييرات نظامية تحتاج إلى خطط تنفيذ طويلة الأمد تمتد على عدة سنوات لضمان النجاح والاستدامة.
- السياسات الإلزامية يجب أن تُرفق بحوافز وأنظمة دعم فعّالة لتجنّب آثار غير مقصودة، مثل ارتفاع معدلات التسرب.
- مشاركة أصحاب المصلحة منذ المراحل الأولى ضرورية لبناء التوافق وضمان استمرارية التطبيق على المدى الطويل.

تُظهر هذه التجربة أن التخطيط لتوسيع نطاق السياسات لا يقتصر على الجوانب الفنية، بل يجب أن يأخذ في الحسبان أيضاً الأبعاد اللوجستية والسياسية والاجتماعية قبل الشروع في تنفيذ تغييرات واسعة النطاق.

إطار قابلية التعميم من معمل عبد اللطيف جميل لمكافحة الفقر (J-PAL)

منهج J-PAL في التعميم

يركز إطار عمل معمل عبد اللطيف جميل لمكافحة الفقر (J-PAL) على آليات التوسع بدلاً من نسخ التدخلات كما هي. فبدلاً من تكرار تنفيذ تدخل معين بشكل مطابق، يقوم الإطار بتقييم ما إذا كانت الآلية السببية الأساسية لا تزال صالحة وفعالة في سياقات مختلفة. ويتمشى هذا النهج مع الفكرة التي تمت مناقشتها سابقاً، وهي الحفاظ على الوظيفة الأساسية للتدخل (fidelity of function) وليس شكله (fidelity of form).

الصندوق 2: ملخص لمنهج J-PAL في التعميم

عملية من أربع خطوات لتقييم قابلية التعميم

1. تحديد الآلية السببية الأساسية – ما العامل الذي يقف وراء نجاح التدخل؟
2. تقييم الظروف المحلية – هل توجد قيود وفرص مشابهة في السياق الجديد؟
3. اختبار الجدوى وقابلية التكيف – تنفيذ تجارب صغيرة النطاق لتعديل التنفيذ وتحسينه.
4. التوسع مع التقييم المستمر – متابعة الفعالية وإجراء التعديلات حسب الحاجة.

مثال: برامج التحويلات النقدية المشروطة (CCTs)

في المكسيك، أطلق برنامج "Progresa" (والذي أصبح لاحقاً "Oportunidades") لتقديم تحويلات نقدية للأسر منخفضة الدخل، بشرط التزام الأطفال بالذهاب إلى المدرسة وتلقي الرعاية الصحية.

- الآلية السببية الأساسية كانت واضحة: الحوافز المالية تشجع الأسر على إرسال أبنائها إلى المدرسة، مما يزيد من معدلات الالتحاق.

لكن عند تكيف البرنامج في سياقات أخرى، تفاوتت النتائج. فقد تأثرت الفعالية بعوامل مثل: مدى توفر المدارس وسهولة الوصول إليها و جودة البنية التحتية الصحية وثقافة المجتمع تجاه التعليم والرعاية الصحية

هذا المثال يُبرز أهمية تقييم الظروف السياقية قبل نقل أي تدخل إلى بيئة جديدة.

تطبيق إطار معمل عبد اللطيف جميل لمكافحة الفقر (J-PAL) على سياسات أخرى

يُظهر إطار عمل J-PAL فعاليته في تقييم قابلية نقل التدخلات وتكييفها في مجالات متعددة، مثل التعليم والصحة، من خلال التركيز على الآلية السببية الأساسية بدلاً من شكل التدخل الأصلي.

- في التعليم

تم تكييف برنامج التعليم بالمستوى المناسب (Teaching at the Right Level – TaRL)، الذي بدأ في الهند، بنجاح في عدة دول. ورغم تعديل طريقة التنفيذ لتناسب السياقات المحلية، بقيت الفكرة الجوهرية كما هي: تجميع الطلاب حسب مستوى تعلمهم، وليس أعمارهم.

- في الصحة

اعتمدت برامج التحفيز للتطعيم، مثل توزيع العدس في الهند، على مبدأ بسيط وفعال: المكافآت الفورية الصغيرة تُشجّع على الإقبال على الرعاية الوقائية. وقد تم تكييف هذا المفهوم واختباره في بلدان أخرى مثل سيراليون، مع تعديلات تتناسب مع الموارد والثقافة المحلية.

تُظهر هذه الأمثلة أن التركيز على ما يجعل التدخل فعالاً هو مفتاح التوسع الناجح، حتى وإن اختلفت تفاصيل التنفيذ.

لماذا يُعد إطار J-PAL مهماً؟

- يُحوّل التركيز من سؤال "هل يعمل التدخل؟" إلى "لماذا يعمل؟ وفي أي ظروف؟"
- يُنتج تكييف التدخلات بمرونة مع السياقات المختلفة، مع الحفاظ على فعاليتها الجوهرية
- يُدمج التعلم المستمر في عملية التوسيع، مما يُعزّز من قابلية الاستدامة والنجاح على المدى الطويل

المزيد من القراءة:

- Cartwright, N., Charlton, L., Juden, M., Munslow, T., and Williams, R.B. (2020) 'Making predictions of programme success more reliable'. CEDIL Methods Working Paper 1. Oxford: CEDIL. Available at: <https://doi.org/10.51744/CMWP1>
- Cartwright, N. (2020). 'Using middle-level theory to improve programme and evaluation design'. CEDIL Methods Brief. Oxford: CEDIL. Available at: <https://doi.org/10.51744/CMB1>
- Abdul Latif Jameel Poverty Action Lab (J-PAL) presentation https://www.povertyactionlab.org/sites/default/files/L3_Generalizability_Fahey.pdf
- The Generalizability Framework Alison Fahey Associate Director of Policy, J-PAL Global:
- https://www.povertyactionlab.org/sites/default/files/L3_Generalizability_Fahey.pdf